عبرة من شعاع الشمس

عدت من أسبوع من قرية من قرى دمشق، ألفتها من عشرين سنة، كنت أفزع إليها من شدة الحر الصيف كله، وهأنذا أذوق فيها قليلاً من شدة البرد في بعض الشتاء؛ ولئن كان المتنبي يرى أن سرج سابح أعز مكان في الدنى، وأن الكتاب خير جليس في الزمان، فكنت أرى في هذه القرية أن أعزَّ مكان إنما هو صخرة صغيرة كنت أجلس عليها في طائفة من النهار، فأتملى محاسن الطبيعة من حولي، وأن خير جليس إنما هو الطبيعة نفسها. لقد حاولت أن أعيش قليلاً في الطبيعة راغباً عن العيشة في الكتب، ولكني عاجز عن وصف العبر التي أملتها عليَّ هذه الطبيعة؛ وأجل هذه العبر في رأيي البساطة، فكنت أشاهد البساطة في كل طرفة عين: كنت أشاهدها في هذا الشعاع الممتد إليَّ وأنا جالس على صخرتي، وفي هذا العشب المنبسط تحت قدمي، وفي هذا الماء الجاري على مقربة مني. كانت عيني تقع على هذه المشاهد كلها، فتنعم ببساطتها؛ ولكن أصحيحة هذه البساطة؟ أفلا نرى إذا حللنا أجزاء هذه المشاهد، ورددناها إلى أصولها، أن بساطتها إنما هي أمر ظاهر؟! فهذا الشعاع الممتد إلينا لا نرى إلا ضياءه وإلا صفاءه، فيبهرنا هذا الضياء الصافي البسيط في ظاهره، ولكنا إذا حللنا الشعاع وفككنا أجزاءه، ورأينا ألوانه السبعة التي اتحدت أتم اتحاد، وتضامَّت أكمل تضام، حتى أُلّف منها الشعاع وركب تركيباً محكماً بحيث لا يُرى منه إلا ضياؤه

علمنا أن الشعاع غير بسيط، وأن حسنه جاءه من كمال تناسق أجزائه، ومن كمال اتحاد ألوانه، فلا جزء في غير محله، ولا قسم زائد فيه أو ناقص؛ وهكذا الأمر في الطبيعة: في مائها وهوائها وعشبها ونظائر هذه الأشياء كلها، فكل جزء من هذه المشاهد مركب من أجزاء، ولكن هذه الأجزاء تضامت، فنشأت محاسنها عن تضامها، فخيِّل إلينا أنها بسيطة!

إلا أني لم أكتب هذا المقال لأقرّر فصلاً من فصول الطبيعيات، فلست من علمائها، وإنما كتبته لأبين العبرة التي نستنبطها معاشر الأدباء من بساطة الطبيعة الظاهرة، وسواء أكنا نمارس صناعة الشعر أم كنا نمارس صناعة النثر أنا لا نمهر في الصناعتين إلا إذا جعلنا الطبيعة مثالاً لا نحيد عنه.

لنرجع الآن إلى الكتب، ولنعش في هذه الكتب قليلاً بعد أن عشنا في الطبيعة قليلاً. إني أبدأ بكتاب الله عزَّ وجلَّ ماذا أرى في آياته البينات؟ أستغفر الله، إني لأعجز عن تفصيل سحر هذه الآيات في مقال مثل هذا المقال، ولكني ماذا أرى من بساطة البيان في كتاب الله؟ لقد تعودنا أن ننظر إلى ما اشتمل عليه من دقائق أمور اللغة أو النحو أو البديع أو غير ذلك، وأظن أنا قليلاً ما نذوق ما اشتمل عليه من بساطة التعبير، في مفرداته وفي جمله؛ على أن الإعجاز كل الإعجاز في هذه البساطة. فقد نمرُّ مثلاً في سورة يوسف عليه السلام بقوله تعالى: «وأخاف أن يأكله الذئب»، فهل تستوقفنا لفظة يأكله؟ هل ننظر في بساطة هذه اللفظة؟ فلو رجعنا إلى اللغة وفتشنا عن مرادف ليأكله لوجدنا في اللغة ألفاظاً كثيرة على هذا المعنى، ولكن كتاب الله عزَّ وجل لم ينتخب إلا أبسط هذه الألفاظ.

ومثل هذه اللفظة قوله تعالى في السورة نفسها: «أرسله معنا غداً يرتع ويلعب»، أفنجد في مفردات اللغة بحذافيرها لفظة أبسط من «يرتع ويلعب»؟!

وكما تبهر بساطة المفردات، فقد تبهر بساطة الجمل. ماذا نجد في سورة طه؟ إنا نجد قوله تعالى: «ربّ اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة لساني»؛ أفتحتوي العربية على تراكيب أبسط من هذه التراكيب!

ومن هذا النمط قوله تعالى في سورة آل عمران:

«يوم تبيض وجوه وتسود وجوه»!

ليس غرضي في هذه الاستشهادات التقصي في ذكر بساطة البيان في القرآن، وإنما غرضي الذي أتوخاه أن نعلم أن الطبيعة كما تشتمل على مشاهد بسيطة في ظاهرها، جاءها الحسن من بساطتها، كذلك كتاب الله عزَّ وجلَّ يشتمل على مفردات وجمل بسيطة جاءها الإعجاز من بساطتها؛ ومَثَل هذه المفردات وهذه الجمل كمثل شعاع الشمس، فكما أنا لا نرى من هذا الشعاع إلا ضياءه الصافي، فكذلك لا نرى من مفردات كتاب الله ومن جمله إلا رونقها الصافي، ولكنا إذا حللنا أجزاء هذه المفردات وهذه الجمل، ورددناها إلى أصولها، عرفنا حسن التنسيق فيها وحسن الاقتصاد في أجزائها، كما نعرف حسن تنسيق الألوان في شعاع الشمس؛ فقد يبهر هذا البيان ببساطته، ولكنا لا ندرك تعذر الوصول إلى مثل هذه البساطة إلا إذا فصلنا أجزاء هذا البيان، فحينئذ نشعر بأنه ليس من الهين أن يقول كل واحد منا: وأخاف أن يأكله الذئب، أو أن يقول: أرسله معنا غداً يرتع ويلعب، أو أن يقول: رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني؛ إلى غير

ذلك من الآيات البينات. فهذا البيان على نحو ما قلت إنما هو بيان بسيط في ظاهره، ولكنه مركب في باطنه؛ غير أن هذا التركيب لا يظهر أثره للعين، وهنا براعته، فلا تجد فيه لفظة زائدة أو لفظة ناقصة، ولا تجد فيه جملة في غير موضعها كما تجد في شعاع الشمس لوناً في غير مكانه!

ولو دققنا في كلام بلغاء الشعراء والكتاب أمثال البحتري والجاحظ وابن المقفع ومن هم في طبقتهم، لوجدنا أن البساطة إنما هي سرُّ خلود هؤلاء الشعراء والكتاب. إنا نعرف كثيراً من كتاب العرب وشعرائهم في القديم لجأوا إلى طرافة التعبير وإلى جدة الاسلوب، ولكن الكلام الذي لا قيمة له إلا حذلقة صاحبه في بيان سرعان ما يهرم فيشيخ فيموت؛ فالبيان البسيط إنما هو خلق للخلود.

من هذا البيان قول البحتري في قصيدة من قصائده:

صاحبُ الحملةِ التي تنقض الزحـ ـف بجمل الصفوف فوق الصفوف

يتخطّى الرَّدى فيملأ صدر السـ ـيف من جانب الخميس الكثيف

حيث لا يهتدي الجبان إلى الفـ ـرّ، وحيث النفوس نصب الحتوف

في لضيف من المنايا يمزّقـ ـن غداة الهجاء كلّ لفيف

ومقام بين الاسنة ضنك بهشيم من الظبي مرصوف

مدَّ ليلاً على الكماة، فما يمـ ـشون فيه إلا بضوء السيوف

لا ينبغي لنا أن نجفل من هذه القطعة، فما في ألفاظها لفظ راعب، فجملة هذه الألفاظ بسيطة في ظاهرها، فإن كلمات: الجملة، والزحف، والصفوف، والسيف، والجبان، والفرّ، والنفوس، وأخواتها التي اختارها البحتري، إنما هي كلمات أنيسة. ولكن من أين جاء خلود البحتري في

هذا الشعر؟ لقد جاءه من تنسيق هذه الألفاظ ومن الاقتصاد فيها، بحيث لا نرى لفظاً في غير موضعه، حتى نشأ عن هذا التنسيق شعر كأنه جسم حي له حركاته وله إشاراته، قد تناسبت أعضاؤه وتناسقت أجزاؤه، حتى إذا وقعت العين عليه قال صاحبها: ما أسهل خلق هذا الجسم! ولكنه إذا حاول أن يخلق جسماً فقد يلهث كثيراً ثم يعرق كثيراً، ثم ينبهر فيستلقي على ظهره من قبل أن يعرف كيف يبدأ وكيف ينتهي!

هكذا يكون البيان البسيط! ولكن السرَّ كل السر في معرفة حقائق البساطة؛ على أن الطبيعة علمتنا حقائقها فلا نحتاج إلى زيادة في التوضيح. لنرجع مرة ثانية إلى شعاع الشمس، ولنتلبث في النظر إلى اتحاد ألوانه، فكما جاء حسن الشعاع من هذا الاتحاد، فكذلك يجيء حسن البيان من التنسيق والترتيب، وهذه هي البساطة!

خبث المتهكمين !...

يقول الكاتب النرويجي «ابسن» على لسان شخص من أشخاص كتبه الفلسفية: لقد اقتبست غبطتي عن أمريكا، ومكتبتي عن شباب النسَّاخ في ألمانيا، وثيابي عن فرنسا، وعلمتني فرنسا المرح والضحك والشك، وانكلترا الفكر والعمل والأثرة، واليهود الصبر، وأهل السويد الشجاعة.

فإذا صحَّ هذا الكلام، فالمرح والضحك من جملة خصائص الفرنسيين، فمن كلام «أناتول فرانس» على السخرية:

«لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلا ازددت اعتقاداً أن من الواجب علينا أن نجعل شهود هذه الحياة وقضاتها:

التهكم والشفقة، فالتهكم بابتسامة يحبِّب إلينا الحياة، والشفقة بدموعها تقدَّس هذه الحياة، والتهكم الذي أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة، إنه لا يستهزئ بالحب والجمال، فهو رقيق وفيه عطف، فضحكه يكظم من الغيظ، وهذا التهكم هو الذي يعلمنا أن نسخر من الأشرار والحمقى، ولولاه لأفضى بنا الضعف إلى كراهيتهم».

لقد كان التهكم من جملة أساليب سقراط في تقرير فلسفته فكان سقراط في تهكمه يرمي إلى مناقضة خصمه، فيسأله مسائل من باب تجاهل العارف، فكان في بدء الأمر يقر مذهب خصمه، ثم يتلطف في سؤاله، فلا يزل به من سؤال إلى سؤال حتى يفضي به إلى المناقضة في القول.

يغلب التهكم على الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس، وقد يكون هذا التهكم لباس فكرة فيها فرح وسرور، أو صيغة مزح روحاني، أو قالباً يفرغ فيه غضب أو حقد أو يأس، أو غير ذلك من هوائج النفس.

فإذا تتبعنا المتهكمين وجدنا لتهكم كل واحد منهم طبيعة خاصة؛ فأناتول فرانس يبرع البراعة كلها في سخريته التي تحقِّر الأشياء، وهو يحاول أن يردَّها إلى حقائق وجهاتها. وقد عدَّ بعض النقَّاد هذا الميل فيه عيباً من العيوب، ولكنه عيب يجعل لأسلوبه صفات غاية في الرقة؛ وأكثر ما يشيع هذا العيب في نقده، فإنه يغرز بعض العبقريات بإبره غرزات يظنها الإنسان في الظاهر خفيفة، ولكناه في الباطن لا تخلو من خطر.

تكاد تكون روايته «تاييس» أحسن نموذج في سخريته، فمن أشخاصها راهب من رهبان مصر اسمه «بافنوس» يعيش هذا الراهب عيشة طاهرة، ممعنا في طول التأمل والتقشف، وإنه

لفي يوم من الأيام يذكر الساعات التي عاش في خلالها بعيداً عن الله تعالى، ويدقق في خطيئاته، واحدة بعد واحدة، حتى يعرف شناعتها حق المعرفة، إذ خطر بباله أنه رأى في الماضي ممثلة ظاهرة الجمال على مسرح الاسكندرية اسمها «تاييس»!.

فالنقَّاد الأتقياء ومنهم «بوردو» يعدون هذه العبارة وأمثالها أسلوباً فاسداً من أساليب «أناتول فرانس» في السخرية برجال الدين، فإن تصويره لهذا الراهب المسكين وهو يطيل الروية في خطيئاته حتى ينكشف له قبحها إنما هو ضرب من التهكم!.

ولكن «أناتول» لا يقف عند هذه الغاية من الهزء، فإنه يستمر في

طريقه، فقد كان جمال «تاييس» لا يخلو من تأثير في قلوب أنبياء الله، وربما هدّم هذه القلوب، وهذا ما حمل «بافنوس» على أن يفكر في إدخال «تاييس»في ظلال الله وأفيائه؛ ولكنه قبل أن يذهب إليها ذهب إلى أحد إخوانه الرهبان وهو يزرع في بستان صغير، فقال له هذا الراهب: يا أخي «بافنوس» لست إلاَّ مذنباً بائساً ولكن أبانا «أنطونيوس» كان من عادته أن يقول: إذا كنت في مكان فلا تعجل في الخروج منه إلى مكان غيره، فكما أن السمك إذا جُرَّ إلى مكان يابس مات فيه فكذلك الرهبان الذين يخرجون من معابدهم ويخالطون رجال العصر فإنهم يضلون عن عزائمهم الصالحة!.

غير أن «بافنوس» لم يسمع كلام أحد، فقد انطلق نحو الاسكندرية، ولقي في طريقه رهباناً آخرين فقصوا عليه طرزهم في الحياة على ضفاف النيل، فقابل أناتول بين أثرتهم في هذه الحياة وبين إفراط «بافنوس» في التقوى والصلاح، فخرج «بافنوس» بعد هذه المقابلة في صورة مجنون يقتله صلاحه وتقواه، ويذهب به عقله المختل، فكأنما «أناتول» يقول لنا: أفلا نرى أن الإنسان إذا عاش عيشة هادئة دون أن يهتم بغيره خير له من أن يدخل في دين كله تضحية وكله إخلاص، لا يجلب لصاحبه إلاَّ الاضطراب والكآبة، فكل حركة من حركات «بافنوس» وكل قول من أقواله يجعله هُزأَةً في أعين الناس.

إن سخرية من هذا النوع فاتنة ولا شك، ولكن ابتسامها لا يخلو من خبث. ولقد قالوا في «أناتول»إنه يستر في عبارات صغيرة بريئة خبث القرد المسن!.

أما المتهكم «لابرويير» فقد برّز في تصوير أخلاق الرجال والجماعات ولكن تصويره يعوزه التعمق الفلسفي إلا أن «لابرويير» كان

صاحب فن، تهزه الأشكال والمظاهر الحيَّة، وإذا كنا لا نجد في تصويره شيئاً جديداً في أهواء البشر، فأنا نجد فيه دقة في معاينة العلامات الظاهرة التي تتعلق بها هذه الأهواء، فكل عبقريته في هذه الدقة وحدها، فلا يجاريه فيها مُجار.

فمن سخريته في فصل من فصول كتابه في الأخلاق وقد اخترت هذه القطعة عرضاً وفيها تصوير لآداب الناس في الحديث:

«قرأ «أرياس» كل شيء، ورأى كل شيء، فهو يريد أن يحمل الناس على أن يعتقدوا فيه هذا كله، إنه رجل عالم بكل شيء، ولقد أنزل نفسه هذه المنزلة، إنه يؤثر الكذب على أن يسكت، أو على أن يظهر مظهر من يجهل بعض الجهل، فإذا كان على مائدة، وتكلم الناس على كبير من كبار قصر الملك في الشمال، استولى على الكلام، وحرَّمه على غيره من الذين يريدون أن يقولوا ما يعلمونه في هذا الباب؛ فتراه يجول في هذه البقعة البعيدة كأنه منحدر منها، فيمضي في قوله في أخلاق هذا القصر، وفي نساء هذا البلد، وفي قوانينه وفي عاداته، ثم يقص القصص الصغيرة التي وقعت فيه، ويرى أن هذه القصص مضحكة، فيضحك قبل كل واحد حتى يكاد ينفزر من الضحك، فإذا تجاسر أحد على مخالفته في الرأي. وجاءه ببرهان واضح على أنه قال أشياء ليست صحيحة، فلا يضطرب «أرياس» من هذه المخالفة، بل يهتاج في وجه من قاطعه ويقول له: إني لا أقص شيئاً لا أظنه حقيقة، فقد بلغني هذا كله عن «سيتون» سفير فرنسا في هذا القصر، إنه عاد إلى باريز من أيام، وأنا أعرفه معرفة من خالطه، وقد سألته مسائل كثيرة، فلم يكتم شيئاً من الأحوال. وما كاد يستأنف حديثه الأول في شيء من الثقة بنفسه أشد من الثقة التي بدأ بها هذا الحديث، حتى انبرى

لـه أحـد المدعويـن وقـال لـه: إن الـذي يخاطبـه الآن إنمـا هـو السـفير «سيتون» نفسه، وقد عاد من سفارته!»

فسخرية «لابرويـر» فـي هـذه العبـارة الأخـيرة، وفـي أمثالهـا مـن عبارات غيرها، قاسية، حادة!

ولقد شاع التهكم في بعض شعراء العرب وكتابهم، وهذا نموذج يسير منه:

لما بلغ النعمان بن المنذر لحوقُ المتلمس بالشام، شق عليه لحوقه بغسان، وحلف أن لا يدخل العراق ولا يطعم بها حتى يموت، وقد اضطربت روايات هذا الخبر، ولكن المهم أن المتلمس قال بعد هذا قصيدة من جملتها:

آليت حبَّ العراق الدهر آكله والحب يأكله في القرية السُّوس!

لم تدر بُصرى بما آليتَ من قسم ولا دمشق إذا ديس الفراديس!

فقوله: حلفتَ على حَب العراق أني لا أطعمه الدهر مع أن الحب متيسر يأكله السوس، ثم قوله لم تدر بلاد الشام لهوانك عليها بيمينك، فتبرها وتمنعني حبها كما منعتني حب العراق، إنما هو قول لا يخلو من سخرية بالنعمان وقد تكون هذه السخرية أشد إيلاماً من الإفحاش في الهجاء.

ولكن إمام السخرية في العرب إنما هو الجاحظ غير مدافع، فقد كانت أمه مطبوعة على التهكم، وخرَّجه في الأدب والعلم رجال لا يضيعون فرص التهكم، أمثال أبي عبيدة والنظام وغيرهما، وعاش في عصر استفاضت فيه الزندقة وشاعت فيه طائفة من الخرافات في طبقات العامة وبعض العلماء والمؤلفين، فلم يجد الجاحظ بداً له من التنبيه على هذا كله، وخاصة فقد كثرت خصومه وحسَّاده ومتعقبوه، فلم يجد له سلاحاً أمضى من التهكم.

للجاحظ في السخرية ببعض أهل التفسير والتأويل أسلوب بسيط جداً، وقد بلغ من بساطته أنه لا يكاد يظهر عليه أثر الاستهزاء، فهو يدس سخريته دساً دون أن يظهر على بيانه؛ فبدلاً من أن يتعرض لخصومه تعرضاً، ويجادلهم جدالاً، فإنه يكتفي في أكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم وعلى مذاهبهم، ولكن هذه الدلالة مهما تكن خفية لا تخلو من روح التهكم، فبينما الجاحظ مثلاً يمضي قوله في باب من أبواب العلم، كباب ما يعتري الإنسان بعد الخصاء، إذا يعرض له رأي من الآراء الشائعة التي لا يؤيدها العلم، فيكتفي في طائفة من الأحوال بالتنبيه على هذا الرأي، من هذا القبيل قوله:

«وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر، فعطس الأسد عطسة، فرمى من منخريه بزوج سنانير، فلذلك: السنور أشبه شيء بالأسد، وسلح الفيل زوج خنازير، فلذلك: الخنزير أشبه شيء بالفيل»...

ثم يردف هذا القول كلامه الآتي:

«قال كيسان: فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنايز، وتلك السنورة حوّاءها، وضحك القوم».

إن مجرد ذكره لأشباه هذه الآراء في أثناء بحثه عن أمور مبنية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته بأصحابها، فكأنه غمز بعينيه غمزاً، فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء، وإنما يترك القارئ حق الحكم عليها، وهذا الأسلوب على نزاهته لا يخلو من خبث. وما أجدرنا أن نقول في الجاحظ ما قالوه في «أناتول فرانس» إنه يستر في سخريته البريئة خبث المسنين من القرود!

عصيان الموتى

في السنة الخالية مثَّل فريق من طلاب جامعة «برنستون» في الولايات المتحدة على مسرح الجامعة نفسها رواية ظاهر موضوعها «عصيان الموتى»، وباطنه تزهيد في الحروب وتنفير عنها؛ وقد جمع الطلاب على المسرح كلَّ ما تحتاج إليه الرواية من جند وقواد وحكومة ورهبان ونساء وصحف وأسواق وجماهير من الناس.

صوروا على المسرح زاوية من زوايا ميدان حرب، وحشدوا في هذه الزاوية طائفة من الممثلين في لباس جند أمريكيين قد لبسوا مغافرهم وتناوبوا على الأعمال في ميدان الحرب، فكان عمل فئة منهم أن يحفروا الأرض، وأن يدفنوا فيها قتلاهم، ولما حفر أحد الجند حفرة وعمَّق هذه الحفرة طرح فيها جثث القتلى، وحينئذ بدأ المشهد الأول من الرواية، فإن هذه الجثث بدلاً من أن تضطجع ظلت واقفة في القبر، إلا أنها لم تنبس ولم تتحرك؛ وعلى الرغم من سكوتها ومن جمودها لم يستطع أحد من الجند أن يكرهها على الاضطجاع، فبلغ الرعب من هؤلاء الجند كل مبلغ، وأنهوا أمرهم إلى قائد من القواد، فجاء القائد وأمر الموتى بالإضطجاع، فلم يطيعوه، فذهب إلى الجنرال وقصَّ عليه القصة.

وقد كان الجنرال يحيط به أركان الحرب، فأخبره القائد بالخبر، فغضب الجنرال، وقال: يا للعار! هذه قصة لا أكاد أصدقها، إنهم لا

ينقادون للأوامر، ولكن ما العمل؟ فبدا له في هذا الشأن أن يذهب بنفسه إلى الموتى، فذهب إليهم فلم يسمعوا كلامه، فأخفق وعاد، فاقترح عليه أحد القوّاد أن يستعين على الموتى بالرهبان، لعلهم أنفذ أمراً، فإن هذه الصنعة إنما هي صنعتهم؛ فهم الذين يدبرون شؤون الموتى، فجاء الجنرال برهبان من الكاثوليك والبروتستانت واليهود؛ بيد أن الرهبان لم يكونوا أحسن حظاً من غيرهم، فعبثاً حاولوا أن يقنعوا الموتى بأنهم إذا ماتوا فإنما ماتوا بمشيئة الله، فلم يضطجع أحد منهم، وظلوا كلهم واقفين!

وفي هذه الحال صدرت على المسرح جرائد وأخذت تفيض في حديث الموتى، ومثّل الطلاب اهتمام الناس في الشوارع والدكاكين بهذا الأمر، وأُلقي على زاوية من زوايا المسرح ضياء ظهرت في خلاله جماعات من الناس يتهامسون ويتوشوشون، وما موضوع همسهم ووشوشتهم إلاّ عصيان الموتى؛ وقلقت حكومة المسرح من هذا الحادث وقالت: إذا امتنع الموتى عن الاضطجاع في قبورهم فكيف السبيل إلى الاستمرار على الحرب؟

خطر ببال رجل من رجال الحكومة خاطر، لئن أخفق القائد والجنرال والرهبان فإن النساء لا يخفقن، فإنهنَّ يصبن باللطف ما لا يصيب القوّاد بالعنف، والنساء من الطبقة المحافظة، إنهنَّ لا يتمردن، وهنَّ يدركن الإدراك كله أن الموت إنما هو موت؛ فانتدبت الحكومة سبع نساء، فظهرن إلى جنب القبور، وشرعت كل واحدة منهن تقول للموتى ما ينشأ لها من الآراء، فقالت إحداهن لزوجها الميّت: إنك سبب في خجلي، الناس كلهم يشيرون إليَّ بأصابعهم.. إنهم يقولون إني امرأة الرجل الذي لا يريد أن يدفن، غداً ستقطع الحكومة عني رزقي، لقد

كنت أرملة الحرب، فكانوا يدفعون إليّ شيئاً من المال أعيش به، فإذا امتنعت عن الاضطجاع في القبر، فماذا أكون.. فلا أنت إلى جنبي حتى تعينني على الحياة، ولا أنت تريد الموت حتى أستعين على هذه الحياة بيسير من المال أقبضه من الحكومة.. إنك ستخوف أطفالي.. فماذا تريد أن اصنع.. أتريد أن أحب رجلاً غيرك.. إني لم أخنك في حياتك فلا أخونك بعد موتك.

..

تكلم النساء بمثل هذا الكلام فلم ينجحن، فبعد أن أخفق الوزراء والرهبان والقواد والنساء انتفض الموتى من قبورهم، فخرجوا من هذا القبور، فغلب عصيانهم على فكرة الحرب، فتمَّ لهم ما أرادوه من تنفير الناس عن الحروب، وانتهت الرواية..!

لا أعرف اسم هذه الرواية، ولا اذكر اسم صاحبها، وإنما شهدها كاتب فرنسي كبير فقال فيها إنها سلسلة مشاهد غريبة كئيبة، قد رتّبت أحسن ترتيب، ومُثلت أبرع تمثيل، ولكن لماذا اختار طلاَّب جامعة «برنستون» هذه الرواية الفظيعة التي تزعج الجمهور، ولا تعلِّمهم شيئاً، وتخوِّفهم ولا تدخل الهدوء عليهم، وقد كان هذا الكاتب يقول للطلاب بعد تمثيلهم الرواية. لما كنت أصغي إلى تمثيلكم كنت أشعر بأن روايتكم إنما هي ضرب من الدعوة، ولكن إلى أي شيء دعوتكم؟ هذا لم أعرفه، أهي دعوة إلى التنفير عن الحروب؟ ولكنها على كل حال دعوة إلى التنفير عن الأحياء وعن النساء وعن الله عزَّ وجلَّ؛ ولماذا يتمرد موتى الحرب وحدهم؟ لماذا لا يتمرد الأحياء أنفسهم؟ فيمتنعوا عن الموت، لماذا لا تتمردون أنتم ولا أتمرد أنا، فنقف في قبورنا؟ فالموت ليس بعادل، ولكن الموت أمر من الأمور الواقعة، وقد كان

الطلاب يقولون بعد هذه السؤالات كلها: إنّا لم نفكر، في هذه المسائل، وإنما وجدنا الرواية حسنة من ناحيتها الفنية فمثلناها وهذا الأمر كله!

لقد فكرت كثيراً في أمر هذه الرواية، وقرأت خلاصتها مرتين وثلاث مرات وأربع مرات، وإذا صدق هذا الطالب الذي قال إنه لم يمثل وإخوانه الرواية إلا لأنها حسنة من وجهتها الفنية، إذا صدق هذا الطالب في قوله فليس لي في الأمر اعتراض، وقد يكون استحساني لها من حيث الفن أبلغ من استحسانه؛ ولكن الروايات لا تكتب ولا تمثل لناحيتها الفنية وحدها، فالفن إنما هو تصوير الحياة نفسها، فالروايات تكتب وتمثل لتصوير الحياة، وعلى هذه القاعدة إن الذين مثلوا الرواية في جامعة «برنستون» أرادوا أمراً من الأمور، فقد أرادوا تنفير الناس عن الحروب، فالرواية مثلت في أبريل، أي قبل هذه الحرب بشهور، فلم تمثل لناحيتها الفنية وإنما مثلت لناحيتها الاجتماعية، وهذا موضع اعتراضي.

هجست في صدري بعد قراءة خلاصة الرواية هواجس كثيرة، وتذكرت خطباً شتى لها صلة بالموضوع، وقلت في نفسي: لو تمرد الموتى في كل زمن من الأزمان ـ وفي كلام أصرح، لو امتنع الأحياء عن الحروب فعصوا رجالهم في هذه الحروب فماذا يكون؟ أول ما مر بذهني خطبة الحجاج في ولايته العراق؛ فلو تمرد الموتى بعد أن قال لأهل العراق في هذه الخطبة: «ألا إن أمير المؤمنين أمرني بإشخاصكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب، وقد أمرتكم بذلك، وأجّلت لكم ثلاثاً، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به ويستوفيه مني، أن لا أجد أحداً من بعث المهلب بعدها إلا ضربت عنقه ـ لو تمرد الموتى بعد هذه الخطبة، أي لو امتنع الأحياء عن محاربة من أمروا بمحاربته، ولم يركب الناس كل

صعب وذلول، على نحو ما رواه المسعودي ولم يخرجوا على وجوههم يريدون المهلَّب ولم يزدحموا على جسر الفرات حتى سقط بعض الناس في الفرات من هذا الازدحام ـ لو لم يفعلوا هذا كله لما كان ملك لبني مروان ولما كان عراق، ولما كان ما وراء العراق من أئمة في اللغة والفقه هم فخر العرب والإسلام على وجه الدهر.

ولو تمرَّد الموتى بعد خطبة طارق في أصحابه: أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ـ لو امتنع أصحاب طارق عن طاعته بعد هذه الخطبة لما كانت جزيرة ولما كانت أندلس، ولأصاب المسلمين في زمن طارق ما أصابهم من بعده مما وصفه أبو البقاء صالح الرندي وغيره من الشعراء في رثاء الأندلس.

ولو تمرد الموتى أيام سيف الدولة وأيام صلاح الدين، ولم يحم الأحياء أوطانهم، ولم يدفعوا الشر عن ديارهم وعن أهلهم لما كانت الشام. وإذا ذهبت الأندلس وأفريقية، وذهب العراق ما وراء العراق، وذهبت الشام وما إلى جنب الشام، فماذا كان يبقى لنا معاشر العرب والمسلمين من اللغة والإسلام؟ أما اللغة فكانت تقبع في صحراوات جزيرتها، فتصاحب البعير في مراحه، والذئب في وجاره، والوحش في كناسه، واليربوع في نافقائه، والأعرابي في بجاده، فلا يكتب الله لها ما كتبه من القدرة على تصوير حس العرب وشعورهم وفكرهم وعاطفتهم، بعد أن استفحل عمرانهم وذهبوا في الحضارة كل مذهب، فوجدوا في لغتهم ما ينعشون به عقولهم وقلوبهم وأرواحهم، إذ أصبحت هذه اللغة لغة علم وفلسفة واجتماع وتأريخ وفن وأدب.

هذا شيء من عواقب الأمم التي تنقاد لروايات تشبه رواية الطلاب

في جامعة «برنستون». على أن الأمير كان أنفسهم لو تمرّد موتاهم وغلبت على أحيائهم فكرة التنفير عن الحروب فماذا يصيبهم؟ إني لا أخوض في هذا الأمر من وجهته السياسية، فليس لي في السياسة شأن، وقد كفانا مؤونتها في هذه المجلة أساتيذ من الطراز الأول، ولكني أخوض فيه من وجهته الاجتماعية.

في «نيويورك» ناد يجتمع فيه كل ثلاثاء على الغداء مئتا رجل ما بين كاتب وصحافي وممثل، ففي كل أسبوع يدعو جماعة هذا النادي إلى ناديهم رجلاً غريباً هبط الولايات المتحدة، فيخطب فيهم ويحدثهم بانفعالاته وبأفكاره؛ والنادي بيئة يكثر فيها المرح ونشاط العقل، ويشيع فيها التهكم والسخرية، وفي مايو سنة ١٩٣٩ كان الكاتب الإنكليزي «نوفيل شوت» في نيويورك، فدُعي إلى النادي، فخطب في أهله خطبة تبين للقارئ ما يصيب الأميركان إذا زهدوا في الحروب؛ فأنا أعرِّب هذه الخطبة لقيمتها الاجتماعية، ولقيمتها الأدبية، لأنها تكاد تكون نموذج السخرية في طبائع الإنكليز، قال الخطيب:

«سادتي! نزلت مدينتكم من بضعة أسابيع، ومن بدائه الأمور أني أطالع صحفكم، وتلذّني هذه المطالعة لذة شديدة، إني أرى أن معظم هذه الجرائد تمدح مذهب اعتزال الولايات المتحدة الأمور الأوربية، وقد جاء في مقالاتها أن الجبان الحي خير من البطل الميت، وأن أميركة تخطئ إذا شاءت أن تغمس أصابعها في أمور أوربة المحرقة، وأن ألمانيا وإيطاليا لهما الحق في هذا المجال الحيوي الذي تطلبانه.. لقد أثرت فيَّ حججكم، وأدى بي التفكير إلى إعطائكم الحق؛ أجل! مذهبكم في الاعتزال إنما هو مذهب رائع، وقد لاحظ هذا الأمر أجدادي في القرن التاسع عشر، وإذا عدت إلى «لندن» فأول عمل أعمله دعوة أهل وطني إلى هذا المذهب!..

«لا شك في أنا معاشر الإنكليز يجب علينا أن نعتزل القارة الأمريكية، وأن لا نغمس أصابعنا في سياسة الولايات المتحدة المحرقة، فلماذا نتدخل في منازعات لا تهمنا؟ وما دام اليابان والألمان والطليان في حاجة إلى مجال حيوي، فلنعط ألمانيا بلاد الكندا، واليابان كولومبية البريطانية، والطليان بعض الجزائر... فإذا فعلنا هذا فقد حللنا العُضلة الأوربية، فإن الممالك التي ذكرتها إذا حصلت على قواعد عظيمة للهجوم، فإنها تستطيع الانصراف إلى استغلال المواد الأولية، وتثمير الأموال الأمريكية على الأصول، ولا شك في أن هذا الفتح يهم الممالك الثلاث أكثر مما يهمنا فتح أوربة البائسة.. وحينئذ نستطيع ـ ونحن جالسون على صخورنا بمقربة من بحارنا ـ أن نرى بعين هادئة أساطيل هذه الممالك تمخر في ظلمة الضباب لتصل إلى سواحلكم.. وحينئذ يمكننا أن نمدح مذهب العزلة.. وحينئذ يقول مجلس العموم عندنا: لا نرسل إلى الحرب الأميركية رجلاً ولا شلنا... وحينئذ نستطيع أن نقول: إن الجبان الحيّ خير من البطل الميت، فهذا كله سيدخل السرور على قلبي؛ ومن يدري؟ فلعلنا نربح إذا بعناكم المدافع والطيارات، وإذا كنا كراماً فإنا نقرضكم قسماً من هذا الربح.

«أيها السادة!

«إني أشكر لصحافتكم فضلها في هذا العلم الثمين الذي علمتني إياه!...».

وقد قال الذي سمع هذه الخطبة القاسية وكان صاحبها يخطبها في شيء من الفن الهادئ وهو ملآن من الثقة بنفسه: إن وجوه جمهور الناس كانت في البدء تعرب عند دهشة وعن قلق، ثم أثر في هذا الجمهور طراز الخطيب في تهكمه وصحة نقده، فابتسمت ثغور الناس؛ ولما فرغ الخطيب من كلامه أثنوا عليه أحسن الثناء؛ وفي هذا اليوم شعرت بأن العزلة إنما هي مذهب ضعيف فاسد.

لا ريب في أن الحرب شر، ولست أحتاج إلى التبسيط في بيان عواقبها السيئة من الناحيتين المادية والأدبية، ولكنها على كل حال شر يدفع به شر

أعظم، فماذا تصبح الأمم التي تحجم عن دفع العدو عنها؟ وماذا يبقى لهذه الأمم إذا غلبت على سلطانها من ميراثها الأدبي أو من ميراثها الفني؟ ماذا يبقى لها من كل ما هيّأه لها الماضي من مجد وفخر؟ أما هؤلاء الذين يرون أن البشرية قد تسغني عن الحروب، وقد تستطيع أن تعيش بسلام على ممر السنين، لأنها قد هُذِّبت أخلاقها وصقلت طبائعها فلم يبق فيها أثر للحيوانية التي نشأت عليها في عصور الكهوف والغيران ـ أما هؤلاء فأبلغ حجة عليهم ما قاله «أناتول فرانس»:

«في أعماقنا شيء من البشرية يتغير تغيراً أقل مما نتصوره، فالحقيقة أنَّا لا نختلف عن أجدادنا إلا قليلاً، فإذا أردنا أن تتغير أذواقنا وعواطفنا، فقد لزمنا أن تتغير الأعضاء التي تولدَّ هذه الأذواق وهذه العواطف، وهذا عمل العصور الطويلة، فإن تغيير طائفة من أخلاقنا على شكل محسوس يستلزم مئات وآلافاً من السنين.

فمتى تغيرت هذه الأذواق وهذه العواطف، أي متى تغير هذا التركيب الفيزيولوجي الذي خلقنا الله فيه، فحينئذ لا نحتاج إلى روايات من طرز رواية «عصيان الموتى» لأن البشرية قد تتصل بأفق أسمى من أفقها، فتنفر عن الحروب بطبائعها وأخلاقها؛ أما اليوم، وأما بعد آلاف السنين، فإنَّا من حيث الأخلاق مثل الذين كانوا يعيشون في عصور الكهوف والغيران، فالامتناع عن الحروب خشية هولها قد يجرُّ إلى هول أعظم.

مجلة الثقافة

(القاهرة)

روح الوطن!

من مقالات الأستاذ الجليل أحمد أمين في هذه المجلة مقاله عنوانها «البركة»، صدرها بنبذ من الفلسفة اللغوية، فأشار إلى ميلاد الألفاظ، وإلى حياتها، وإلى انتقالها من طور إلى طور على تعاقب العصور، وطابق بين هذه الفكرة الدقيقة وبين كلمة «البَرَكة»ـ فأتى على ذكر المعاني التي كانت لهذه الكلمة على ممر السنين، فقفز من بحث لغوي جليل إلى بحث اجتماعي أجلّ.

لست أعلم في اللغة باباً يأخذ بمجامع القلوب مثل باب ميلاد الألفاظ وحياتها وموتها؛ ولما فرغت من مقالة «البركة» خطر على بالي من فوري كتاب «حياة الألفاظ» لأستاذ من أساتيذ «السوربون» أرجو أن أتمكن من تلخيصه في مقال آت حتى نعرف معاشر العرب كيف تولد الألفاظ، وكيف تعيش وكيف تموت؛ وقد نعتقد أن مباحث اللغة من المباحث الجامدة الناشفة، فلسنا ننظر إلى اللغة نظرة الإفرنجة لها، فقليلاً ما نفكر في انتقال معاني الألفاظ من وجه إلى وجه، وقليلاً ما نبالي بما تشتمل عليه هذه الألفاظ من تاريخ مديد، ولا ندري أن البحث عن اللغة يعادل البحث عن تاريخ أهل هذه اللغة بحذافيرهم: عن كل ناحية من نواحيهم، عن فكرهم وشعورهم وإرادتهم وعاطفتهم،وعن كل ما يتولد عن هذا الفكر وهذا الشعور وهذه الإرادة وهذه العاطفة من

حضارة وعلم وأدب وفن وأشباه هذا كله؛ لست أدري لماذا لا نجعل لأمثال هذه المباحث المقام الأول من حين إلى آخر.

مرت بذهني وأنا أكتب هذا المقال كلمة«الهرم» أي لفظ أسهل من هذا اللفظ، أم أخف على اللسان منه؟ ولكن هل يدري القارئ بالأمور التي تلهمه إياها كلمة الهرم هل يدري بالأسرار التي تشتمل عليها هذه الكلمة؟ فقد تنطوي كلمة «الهرم» على تاريخ أمة بأجمعها، بعلمها وحضارتها!

إذا زار الإنسان هرم الجيزة، ووقف في ظلال هذا الهرم يتأمل فيه، فما هي الأمور التي تزدحم في صدره عند هذا التأمل؟ لا شك في أن أول ما يستولي عليه من رؤية الهرم دهشة يدهشها، وحيرة يحارها، فلا ينفك يقلب النظر في ارتفاعه، وفي قاعدته، وفي الوسائل التي توسل بها بناته إلى بناء جبل من حجارة، وكم يكون مبلغ دهشته وحيرته إذا علم أن بعض الحجارة المصقولة يبلغ طولها عشرة أمتار، وأن بعضها يزن أربعمائة وسبعين ألف كيلو غرام، وأن وزن الهرم الكبير وحده ستة ملايين طن أي أن هذا الهرم يحتاج نقله إلى ستة آلاف قاطرة تحمل كل واحدة منها ألف طن، فلا تكاد ثروة مصر برمتها تسد أجور عمال ينتدبون إلى هدمه!

ولكن هل يقف فكر الزائر عند هذا الحد. أفلا تلهمه كلمة الهرم أشياء كثيرة؟ أفلا يرغب هذا الفكر في معرفة غاية الفراعنة والكهان من ركم حجارة فوق حجارة قد صقلت صقلاً منظماً في كل وجه من وجوهها، ورتبت.ترتيباً هندسياً محدوداً؟ فإذا سأل هذا الزائر الدليل الذي يقوده إلى زيارة الهرم، أو إذا طالع الكتب التي تصف له هذا الهرم، أو إذا سمع أقوال علماء الآثار الذين حلوا الخطوط القديمة، علم

أن هذه الأهرام إن هي إلا مدافن الملوك العظماء في تلك العصور البعيدة، فعجب بعد هذا العلم من مقدار البذخ، أو مقدار المجهودات، أو مقدار العبيد الذين استخدموا في تخليد ذكرى ملوك مصر في قديم الدهر!

إلا أن بعض عقول الزائرين لا تهدأ عند هذا الأفق من التفكير؛ قد تعجب ولا شك من ركم آلاف من أمتار مكعبة من الحجارة لتشريف ملك من ملوك الأرض أو لدفن جثة محنطة، إلا أنها لا تخضع لرأي الذين يقولون إن الأهرام إن هي إلا قبور الفراعنة؛ فإنها ترى أن هذه المباني تشتمل على فكرة أسمى من فكرة القبور، فقد كانت غاية كهان مصر في القديم تثبيت طائفة من مبادئ علومهم في هذه المباني الخالدة على وجه الدهر؛ كيف استطاع أولئك العلماء المتقدمين أن يعرفوا هيأة الأرض وأن يقيسوها وأن يزنوها؟ كيف كانت وسائلهم في معرفة أعماق السماء، وفي معرفة المسافة بين الأرض والشمس؟ كل هذه المسائل نرى جواباً عنها في التدقيق في بناء الهرم الكبير؛ فإن الراهب «مورو» صاحب كتاب ألغاز علوم الفراعنة أثبت في كتابه هذا أن الأهرام إنما هي مدافن أسرار كهان مصر في القديم ومكامن علومهم. والمقام لا يتسع على ما أعتقد لذكر يسير من أدلته الرياضية التي استدل بها على أن بناة الأهرام قد توخوا في بنائهم غاية أسمى من الغاية المادية. لقد كانت الأهرام مسارح علوم الكهان في الفلك والهندسة وغيرهما.

أفلا يرى القارئ بعد هذا كله على أي شيء تدل كلمة الهرم؟ أفلا يرى أن هذه الكلمة المؤلفة من ثلاثة حروف قد انطوت على تاريخ بعيد المدى فلخصت حضارة أمة بأجمعها؟ أفلا يرى أن مطالعة صفحة من

صفحات معجمات اللغة كل يوم يكشف له عالماً متسع الأفياء؟ ولست أعلم قولاً في الحض على محبة معجمات اللغة، وعلى الولع بمطالعتها، وعلى تعريف الأمور التي تتضمنها هذه المعجمات، أبلغ من قول إمام من أئمة فرنسة الخالدين، وأعني به «أناتول فرانس» فمن مقالاته البارعة في أحد كتبه (الحياة الأدبية) مقالة أذكر منها ما يلي:

«روى «بودلير» أنه لما كان شاباً مغمور الصيت أحب أن يقابل «تيوفيل غوتيه» فتقبله الأستاذ «تيوفيل» وسأله هذا السؤال: هل تقرأ معجمات اللغة؟ فأجابه «بودلير» عن سؤاله بأنه كان يقرأ معجمات اللغة، ويبتهج بقراءتها. وقد كان «غوتيه» الذي انصرف إلى مطالعة مفردات في الفنون والصناعات لا يحصيها إحصاء يرى أنه لا يليق بالشاعر أو بالكاتب، أن لا تسره قراءة مفردات اللغة وتفاسيرها. كان مولعاً بالكلمات يحبها حباً جماً، ويعرف طائفة عظيمة منها، وإذا أثنى على «بودلير» لقراءته معجمات اللغة، فكم يكون مبلغ ثنائه على صديقنا «دي أريديا» الشاعر المبرز الذي كان يجهر بأن قراءة معجم «نيكو» تستثيره وتنشئ في قلبه من اللذة والسرور مالا تنشئه قراءة « الحراس الثلاثة». انظر إلى مخيلة رجال الفنون! فقد كان «دي أريديا» يزعم أن حروف هجاء الأحجار الكريمة أو فهرس متحف المدافع أشد تحريكاً للقلوب من مطالعة الروايات، أما أنا فلا أجد عادة للكلمات معنى أعظم من المعنى الذي تجعله لها المصطلحات؛ فقد كنت في الأغلب من الأوقات أهيم في معجمات كبيرة كأنها رياض ملتفة؛ والسبب في هذا أني أرى أن الألفاظ إنما هي صور، وما المعجم اللغوي إلا عالم قد رتب بحسب ترتيب حروف الهجاء. وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة صادقة، فإنا نجد أن معجم اللغة إنما هو الكتاب الذي لا يعلوه

كتاب، فإنه يشتمل على التصانيف بمجامعها، فما عليك إلا أن تستخرجها منه؛ وهل أنت عالم بماذا كان يشتغل آدم لما خرج من بين يدي الله؟ فقد جاء في التوراة أنه شرع في تسمية الحيوانات بأسمائها، فوضع في فاتحة أمره معجماً للتاريخ الطبيعي، ولكنه لم يكتب هذا المعجم، لأن الفنون لم تك نائشة في عصره، وما حدثت الفنون إلا بعد حدوث الخطئية. آدم هو أبو البشر وأبو المعجمات اللغوية؛ ومن الغريب أنه ليس في العصور المتقدمة وفي القرون الوسطى من المعجمات إلاَّ القليل، ولم يرجع عهد تفسير الكلمات إلا إلى القرن السابع عشر؛ ولكن ما أعظم التقدم الذي تقدمه هذا التفسير من ذاك العصر! وما أجل الخدم التي خدمها! فإن اللغات الميتة واللغات الحية بأجمعها، والعلوم المحدثة، والفنون بحذافيرها لها في يومنا هذا معجمات تحتوي على مفرداتها، وما هذه المعجمات إلا بيانات فيها شرف العصور الحديثة.

«قلت لكم إني أحب معجمات اللغة. فأنا لا أحبها لمجرد فائدتها العظيمة؛ ولكني أحبها لأنها تحتوي على شيء جميل فخم، انظر إلى معجم «غازية» أو إلى غيره من المعجمات، وتصور أنك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم، ليتصور ذهنك أن في هذه الصفحات التي يبلغ عددها ألف صفحة، أو ألفاً ومائتي صفحة، عبقرية فرنسة وطبيعتها؛ ليتصور ذهنك أن فيها أفكارنا وأفكار أجدادنا، وأفراحنا وافراحهم، وأعمالنا وأعمالهم، وآلامنا وآلامهم؛ ليخطر ببالك أن في هذا المعجم آثار الحياة العامة، وحياة الدور والمنازل، وآثار الذين نشقوا الهواء الصالح، وشموا النسيم العليل الذي نشمه اليوم؛ ليخطر ببالك أن كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الأفكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عديدهم، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى

مقدارهم؛ ليهجس في صدرك أن كل هذه الكلمات المجموعة إنما هي لحم الوطن والبشرية، ودمهما وروحهما!

«في أغنية من أغانينا القديمة أن الكونتس «دي روسيون» بنت ملك فرنسة نظرت ذات يوم من شرفة برجها إلى حرب شديدة دارت بين والدها وبين زوجها بسبب مهرها، وقد جرت الدماء في هذه الحرب، ودامت النهار كله؛ ولما هدأ الليل وسجا، نزلت الكونتس من برجها، وذهبت إلى الموتى تصوِّب فيهم نظرها وتصعِّده، ذهبت إلى موتاها الكرام الملاح المنبسطين على العشب والندى؛ ثم جاء في هذه الأغنية أن الكونتس أحبت أن تقبل هؤلاء الموتى كلهم، وأنا أيضاً أشعر في قلبي بحنو عظيم أمام كل كلمات اللغة الفرنسية؛ إني أشعر برأفة كبيرة أمام طائفة التعابير البسيطة أو الفخمة؛ إني أحبها كلها، فهي تستميلني وتستفزني؛ وإني لألمس الكتاب الذي يتضمنها لمساً شديداً ينم عن مبلغ اهتزازي وارتياحي؛ وهذا السبب الذي من أجلها أحب معجمات اللغة الفرنسية حباً خاصاً.»

أظن أن من الخطأ أن أضيف شيئاً من عندي إلى مثل هذا الكلام. فهل نشعر بحنو على لغتنا مثل حنو «أناتول» على لغته، وهل تستميلنا معجمات اللغة وتستفزنا؟ هل نرى فيها روح الوطن؟

مجلة الثقافة

القاهرة

تحت سماء المعادي

سألني الأستاذ الجليل أحمد أمين بك وانا في لجنة التأليف والترجمة والنشر: «ما الذي أوحته إليك مصر من شعر أو نثر؟» فخجلت الخجل كله لما قلت: لم توح إلى بعد شيئاً، وذلك لأني لما هبطتها لقيت فيها من الضوضاء ومن جيئة الناس وذهوبهم في الشوارع ومن زحمة السيارات ما جهد أعصابي، فبقيت أياماً لم أقرأ جريدة ولم افتح كتاباً. أما اليوم فقد خطر ببالي أن اذهب في الصباح إلى «المعادي» هذه الضاحية التي ملكت عليّ مشاعري فأحببتها من سنين بعيدة وجعلت لها من قلبي نصيباً وافراً. ذهبت إلى «المعادي» في الصباح وأسرعت إلى «الكازينو» الذي ألفت التردد إليه من قبل، وما كدت أوقد «غليوني» وأشرب الشاي وأرمي بطرفي إلى السماء الصافية وإلى النيل الرنق، وإلى النخيل المنبسط من حوله حتى ازدحمت الأفكار في صدري، فوقف القلم لتحيره على تعبير ابن المقفع، ثم فتشت عن كلام أفصح به عن هذه الأفكار المزدحمة فلم تحضرني عبارة أرضى بها لأفصح عن هواجس الصدر، فأطلقت حينئذ القلم إطلاقاً ورضيت بكل ما حضرني من الكلام دون شيء من التزويق أو الانتخاب:

يستطيع الأستاذ أحمد أمين بك أن يسألني الآن: «ما الذي أوحته إليك القاهرة»، وأستطيع أن أجيبه عن سؤاله دون شيء من الكلفة:

اليوم شعرت بأني في مصر، اليوم تمتعت بنيل مصر وريفها

ونخيلها وسمائها. جمعت لي مصر في كلمتين وهما: الريف والنيل، كلمتان مضت عليهما أحقاب طويلة وهما لا تزالان قويتين، خالدتين. وإذا كان المتنبي يجد من ندى سيف الدولة ريفاً ونيلاً فإني لا أجد من ندي أحد على وجه الأرض مثل هذا الريف ومثل هذا النيل، لم يتبين لي وجه القاهرة في شوارعها ولا في مبانيها ولا في سياراتها ولا في زحمتها، فهذا كله غير خالد في تاريخ البلدان. إن زلزالاً واحداً يذهب بكثير مما تبنيه الأمم فلا يبقى له أثر. ولكن طبيعة البلدان التي تعيش فيها هذه الأمم خالدة على وجه الدهر. فالنيل خالد، والريف خالد، والهرم خالد، فإذا أحببت أن أفتش عن خلود مصر ففي هذه الألفاظ الثلاثة، فمنها عرفت وجه مصر، ومنها أحببت مصر. أما القاهرة فلم توح إلي شيئاً فأنا لم أعرف وجه مصر فيها. ولولا أدباء فضلاء، ولولا أساتيذ أجلاء زرتهم وملأت نفسي من لذة أحاديثهم وسمعت لغتهم الحلوة، لكنت في مصر غريب الوجه واللسان، ولحسبت أني في مدينة من مدن أوربة. في باريس أو في لندن، وأنا لم أزر القاهرة لأرى فيها صورة باريس أو صورة لندن أو صورة غيرهما من الأمصار. وإنما زرت القاهرة لأرى وجه مصر وطبيعة مصر وريفها ونيلها وهرمها ولأسمع لغتها وما شابه ذلك. ولست أدري لماذا أفرط أدب مصر في الإنقباض عن هذه المظاهر الساحرة الخالدة، والانبساط إلى مظاهر ثانية غلبت عليها المادة! لست أدري لماذا لا أجد في أدب مصر إلا الشيء اليسير من التغني بعنوان عظمتها، بريفها ونيلها وطبيعتها! لابأس بالانتقال إلى سماء مادية، ولكن البأس كل البأس بالفناء في هذه السماء المادية، فالأمم تعيش بالمادة وبالروح معاً، والأمم التي اقتصرت على العيشة في المادة وحدها والذوبان فيها صائر التعب إليها ولا شك

في ذلك: إنها ستجهدها في آت قريب عبادة هذه المادة وستشعر بشيء غير قليل من الحاجة إلى التعلق بالروح. قد تكون المادة بنت العقل ولكن المرء إذا كان يعيش بعقله فهو لا يستغنى عن العيشة بقلبه أيضاً. وكم كنت في دهشة لما كنت أطالع في أدب هجم علينا من وراء البحار مباحث فلسفية لا يتذمم أصحابها من أن يقولوا في أثناء كلامهم: ولقد جرب فلان صاحب معمل كذا هذه الطريقة الفلسفية في معمله فربح ربحاً عظيماً؛ فالفلسفة غايتها الربح والعلم غايته الربح والأدب غايته الربح، أفلا نجد في هذه النزعة تعب الأمم وجهدها؟ فالفلسفة فيها شيء أجل من الربح والعلم فيه شيء أسمى من الربح والأدب فيه شيئ أرفع من الربح، ولو صبغنا هذه الآفاق الإنسانية بصباغ مادي محض لضاع على عقولنا وقلوبنا كثير من اللذة.

أراني قد خرجت عن موضوعي ولكن ما هو موضوعي؟ فأنا لم أبعثر أفكاري على هذه الورقة على صورة منطقية تتصل فيها النتائج بالمبادئ. وإنما بعثرت فيها شعوري على صورة بسيطة غير مهتم بالمنطق فيها، فهأنذا أترك المنطق وأترك المادة وأترك زحمة القاهرة، وأصوب النظر وأُصعده في سماء المعادي وفي نيلها وفي نخيلها وفي هذه الأهرام المترامية من وراء النيل ومن وراء النخيل. هأنذا أملأ قلبي من فتنة هذه المناظر كلها قبل الإنحدار إلى القاهرة، ولكن المؤلم أني لم أسمع وأنا في الكازينو كلمة عربية ولا لهجة مصرية، فما سمعت إلا العجمة، فلا يحب المصري أن يتمتع بشيء من محاسن طبيعته، فقد إنسحب من هذا الميدان فسرح فيه غيره، فلم يملك عليه حب طبيعة بلاده شيئاً من قبله. فأين الأدب؟ أين هذا الأدب الذي يحمل المصري على الفناء في محبة أرضه وسمائه؟ أين هذا الأدب الذي يحمله على

الذوبان في محبة ريفه ونيله؟ أطرح الآن القلم من يدي لأن الشمس قد اشتدت وطأتها علي، وأودع المعادي، وأودع هدوء الحياة لأعود إلى ضوضائها، أودع روح الحياة لأعود إلى مادتها، هذه المادة التي كانت سبباً في شقاوة البشرية في حرب ما عرف التاريخ نظيرها؛ ففي اليوم الذي يستطيع فيه الأدب المصري أن يجعل لي ولأمثالي نصيباً من الروح ومن المادة معاً في صفحاته، في اليوم الذي يحملني ويحمل أبناء دياره على التغني بخلود مصر وبمحاسن مصر وبفتنة كل بقعة من بقاعها، أشعر إذ ذاك بأني في القاهرة. أما الآن فلا أزال أحسبني في باريس أو في لندن!

مجلة الثقافة

القاهرة

المثل الأعلى

من الخطب التي ألفت الرجوع إليها من حين إلى آخر خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم على عثمان بن عفان بفتح إفريقية، فقد أخبره مشافهةً بهذا الفتح على نحو ما رواه صاحب العقد الفريد، وقص عليه كيف كانت الوقعة، فأعجب عثمان ما سمع منه، فقال له: يا بني، أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أهيب لك مني لهم. فقام عثمان في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد فتح عليكم إفريقية، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله. وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر، فقام خطيباً؛ وكان أول من خطب إلى جانب المنبر.

قد لا أرى بي حاجة إلى ذكر الخطبة بأجمعها، فإن رجال الأدب لا تغيب عنهم أمثال هذه الخطب، وقد لا أرى بي حاجة إلى الكلام على بلاغتها، فما غايتي هذا الكلام في مثل هذا المقام؛ وحسبي أن أذكر أن عبد الله ابن الزبير لما فرغ من خطبته وسكت، نهض إليه أبوه الزبير، فقبل بين عينيه وقال: ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم؛ يا بني، ما زلت تنطق بلسان أبي بكر حتى صمت!

إلا أني لا أرى مندوحة عن التمثل بعبارة من عبارات هذه الخطبة، فإن عبد الله بن الزبير لما أفاض في الكلام على قتال العدو قال: فبتنا وباتوا، وللمسلمين دويّ بالقرآن كدويّ النحل، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم!

هذه العبارة (وللمسلمين دويّ بالقرآن كدويّ النحل) هي التي أوحت إليّ موضوع المثل الأعلى، فإني لما بلغتها طرحت الكتاب من يدي، وغمضت عيني دقائق معدودات؛ فماذا تراءى لي في خلال هذه الدقائق، إن الذي مرّ بخاطري إنما هو ما أشار إليه ابن الزبير في خطبته من صهيل الخيل، ورغاء الإبل، وقعقعة السلاح، فكأني شهدت القتال، وكأني شهدت المسلمين وقد غادروا أهلهم وأوطانهم، وزحفوا إلى العدوّ، فنسوا كل شي في هذا الزحف، فما شاقتهم أرض ولا سماء، ولا أرهبتهم سيوف ولا رماح، فكأنهم غابوا في قتالهم عن أنفسهم، وكأنهم ذابوا في شيء واحد، في كلام الله الذي أنساهم شدة القتال وألفه الوطن، ومحبة الأهل، فكان لهم بهذا الكلام دويّ كدوي النحل!

اصطلح علماء الاجتماع في هذا العصر على أن يسموا هذا الدويّ بالقرآن، أي هذا التعلق بكلام الله، أو التعلق بأي مذهب من مذاهب السياسة والاجتماع «المثل الأعلى»، وكتبوا الفصول الطويلة في كتبهم وضحوا فيها عظم شأن المثل الأعلى في حياة الشعوب؛ وإذا أردنا أن نعرف شأنه الجليل في هذه الحياة فحسبنا ما عرفناه مما صدر عن هذا المثل الأعلى في بدء الإسلام، فما دهش المؤرخين من شيء دهشتهم من سرعة استفاضة الإسلام في آفاق العالم؛ فقد استطاع المسلمون الذين ذابوا في مثلهم الاعلى وفنوا فيه أن يبنوا في سنين قليلة ملكاً أعظم من ملك الاسكندر، وكادت عقول الرومانيين تطير لما رأوا قبائل من البدو على أبواب الشام، يؤلف بين قلوبها الفناء في سبيل الله، حتى استطاعت هذه القبائل بفضل مثلها الأعلى أن تخرج الرومانيين من الشام، وأن تفتح في بضع سنين بلاد فارس ومصر وإفريقية وقسماً من الهند.

ولكن هذا المثل الأعلى الذي نشأ عنه ملك مترامي الأطراف، نشأت عنه أيضاً حضارة سطع ضياؤها في العالم؛ وبلغ من جلالة قدره أن الفاتحين من المغول والترك الذين فتحوا بلاد العرب بعد ضعف أهلها لم يسعهم إلا الدخول في دين العرب واقتباس فنونهم ولغتهم.

تتنازع العالم في عصرنا هذا على رأي الدكتور «غستاف لوبون» ثلاثة أشكال من المثل الأعلى: المثل الأعلى في الدين، والمثل الأعلى في القومية، والمثل الأعلى في الشعوبية؛ أما الأول فلم يبق له أثر سياسي بليغ إلا في آسيا، وخاصة مسلمي آسيا، فإن المذهب الاشتراكي في أوربة أوشك أن يحل محل المعتقدات الدينية في مواضي الأيام؛ فقديماً إذا ظهر دين من الأديان، وظهوره نادر، فإن هذا الدين كان يؤدي إلى الإنقلابات؛ فمن تأملات بوذا تحت ظلال شجرة الحكمة نشأ قبل النصرانية بخمسة قرون دين غيَّر حياة الشرق الأقصى، ولا يزال يغلب على تفكير أربعمائة مليون رجل، وأدت النصرانية إلى انقلابات بليغة كالانقلابات البوذية، وأنشأ الإسلام مملكة إذا زال معظمها في أيامنا هذه، فإن الإيمان الذي ولد هذه المملكة لا يزال حياً.

وأما الثاني: المثل الأعلى في القومية، الذي خرجت منه فكرة الوطن، فقد نما غرسه في كثير من الشعوب بعد الحرب الماضية وخاصة في الشعوب التي خلقتها معاهدة الصلح وأما الثالث فإنه ينكر فكرة الوطن وأصحابه الاشتراكيون والشيوعيون، فقد ذهبوا إلى أن اطراح فكرة الوطن يؤدي إلى سلم عام.

قد يهمنا أن نعرف أي شكل من هذه الأشكال الثلاثة كان أقوى من غيره؛ ففي رأي «لوبون » أن المثل الأعلى الذي ملك القدرة على التأليف بين عواطف الناس إنما هو المثل الأعلى الديني في معظم

الأحوال، والمثل الأعلى السياسي في بعضها، فلولا وحدة العواطف في الشعوب ولولا وحدة الأفكار لما دامت حضارة من الحضارات.

لقد غاب عن رجال المذهب المادي في التاريخ سلطان المثل الأعلى في حياة الشعوب، فقد رأى أصحاب هذا المذهب أن الحاجات المادية هي التي تسيطر على سير الشعوب دون غيرها، على حين نجد أن أعظم حوادث التاريخ كان مصدرها مثلاً أعلى صوفياً غريباً عن كل الحاجات المادية، فإن نشأة الإسلام والحروب الصليبية وحروب الدين وغيرها من الحوادث المماثلة لها كانت أسبابها عوامل صوفية، أي عوامل نفسية، فلم تكن الحاجات المادية أسباب هذه الحوادث، فالمثل الأعلى يقود روح الشعوب كما تقودها الضرورات الاقتصادية.

غير أن المثل الأعلى في الدين قد أصبح سلطانه في أيامنا في كثير من الشعوب أضعف من سلطان المثل الأعلى في مذاهب السياسة والاجتماع، كمذهب القائلين بتفوق العنصر أو كالمذهب الإشتراكي.

ولكن أقوى مثل أعلى خلَّفه لنا الماضي، إنما هو المثل الأعلى في القومية، وقوامه عبادة الوطن؛ فليس الوطن عبارة عن أرض الآباء والأجداد وحدها، ولكنه عبارة عن جملة التقاليد والأفكار والعواطف المشتركة التي تجعل أهل بلد من البلدان يشعرون بأنهم إخوان.

ولقد دلنا التاريخ دلالة واضحة على قوة فكرة الوطن؛ فلما كان الرومانيون يعبدون رومة، وتملأ هذه العبادة قلوبهم كانوا ملوك العالم، حتى ضعفت فكرة الوطن في قلوبهم بسبب تنازعاتهم الاجتماعية فبدأ اضمحلالهم.

فالعالم لا يزال يخرج من إنقلاب إلى إنقلاب، ومن فوضى إلى فوضى، حتى تستطيع العوامل النفسية في الشعوب ـ وهي العوامل التي

لا تفنى لأنها جزء من الطبيعة البشرية ــ أن تنشئ مثلاً أعلى حديثاً لا تُضادمه الحقائق الإقتصادية التي تقلب عصورنا هذه.

فأي شكل من أشكال المثل الأعلى نجده أشد مناسبة لنا في هذا العصر؟ لا ريب في أن مثل هذا سؤال لا يسهل الجواب عنه دفعة واحدة، فإن لعوامل كثيرة تأثيراً في تقرير المثل الأعلى؛ ولكن الذي نستطيع أن نعرفه أن مستقبل أي شعب من الشعوب متوقف على العلم بمثله الأعلى الذي يؤلف بين عواطف الناس حتى يصبحوا وكأنهم قد جمعوا في نظام واحد، فمن عاش بلا مثل أعلى عاش بلا شيء!.

مجلة الثقافة

القاهرة

فن الشيخوخة

هل من سبيل إلى التفلّت من الشيخوخة؟ أو هل من سبيل إلى أن نشيخ شيخوخة حسنة؟ وفي عبارة أدق: هل للشيخوخة فن من الفنون؟

هذه مسائل توسع في الكلام عليها وعلى شعبها «أندريه موروا» في فصل من فصول كتابه «فن الحياة»؛ وإذا كنا كثيراً ما نشير إلى الشباب في أدبنا، ونتغنى بنضارته، فلست أدري لماذا لا نجعل لشيخوختنا نصيباً من هذا الأدب؛ وسواء أكانت هذه الشيخوخة تبتدئ من الأربعين على رأي بعضهم، أم من الخمسين على رأي الآخرين، فلماذا لا نُعنى بفنها، أي لماذا لا نقاوم آفاتها، حتى تكون خاتمة حياتنا على الرغم من هذه الآفات خاتمة حسنة؛ فالناس الذين لا يعرفون أن يكونوا شيوخاً قلائل على نحو ما قال: «لاروشفوكو»؛ والفرح المتكامل على نحو ما قال «كورني» لا يدخل في المساء إلا على قلوب الذين عرفوا أن لا يذهب نهارهم سدى!

نستغرب جداً أمر الشيخوخة، وقد يبلغ من استغرابنا، لهذا الأمر أنا لا نكاد نصدق أن هذه الشيخوخة تدركنا كما أدركت غيرنا، ولا نكاد نرى آثار السنين على وجوهنا، وعلى رؤوسنا، وعلى قلوبنا، إلا بعد أن نراها على رجال من أعمارنا، فكأن وجوه الرجال مرايا تتراءى لنا فيها تجعدات وجوهنا.

قد نريد أن نعرف متى تبتدئ شيخوختنا، فإنا نظل زمناً طويلاً من

حياتنا نعتقد أنها لا تصيبنا، فقد تحتفظ أذهاننا بمرحها ونشاطها، وقوانا بسلامتها، فالانتقال من الصبا إلى الشيخوخة بطيء جداً، حتى إن الإنسان لا يكاد يشعر به من هذا البطء؛ وما مثلنا في هذا الانتقال إلا كمثل فصول السنة الأربعة، فإن الخريف يتبع الصيف، والشتاء يتبع الخريف، ولكن هذا التتابع يجري كل يوم على التدريج بحيث لا تكاد عيني المراقب تراه؛ فالخريف يتقدم كل يوم وقد لفته أوراقه، وفي صبح من أصباح تشرين الثاني تهب ريح شديدة، فتجرد هذا الخريف من قناعه المذهب، فيلوح من وراء هذا القناع هيكل الشتاء النحيل، فالأوراق التي كنا نعتقد أنها لا تزال مخضرة قد ماتت ولم تبق متشبثة بأغصانها إلا بفضل ألياف دقيقة جداً، فالريح التي هبت قد أظهرت المرض ولكنها لم تخلقه.

وهكذا فإن أمراض الشيخوخة إنما هي بمنزلة هذه الرياح؛ فقد تقع العين على فلان، فنعجب من قوته ومن نشاطه، ومن خفة روحه، ومن لذع أحاديثه؛ ولكنه يتعرض في يوم من الأيام لأمر من الأمور لو تعرض له شاب من الشباب لما أصابه منه إلا زكام أو وجع رأس؛ أما هو فتصيبه ذات الرئة أو غيرها، فيصفر وجهه في قليل من الأيام، ويتقوس ظهره، وينطفئ نور عينيه؛ ففي دقيقة من الدقائق نصبح شيوخاً، ولماذا؟ لأننا شخنا قبل هذه الدقيقة، ولكنا لم نشعر بهذه الشيخوخة ولم نرها!

غير أن الشيخوخة لا تكون بنت الشعرات البيض، أو التجعدات، وإنما علامة الشيخوخة هذا الشعور الذي نشعر به في أعماق قلوبنا، فنقول مثلاً: لقد مضى وقت كذا وكذا.. ولم نعد صالحين لكذا وكذا... وأبطال الحياة بعد اليوم هم ناس غيرنا.. فمرض الشيخوخة الحقيقي لا

يكون في ضعف الجسم، ولكنه في عدم مبالاة النفس، فإن الرغبة في العمل بعد الأربعين أو بعد الخمسين هي التي تقل أكثر من القدرة على العمل. إن الذي يقل بعد هذه السن إنما هو هذا النشاط في الشباب، وهذه الرغبة في المعرفة والفهم، وهذا الإغراق في الأمل، وهذا السلطان في الحب، وهذا الإيمان بنجوع العقل؛ فهل من سبيل إلى الاحتفاظ بهذه الأمور كلها بعد الخمسين حيث تعتدل العيون، فنرى الأشياء والأشخاص كما هم، لأنها لا يبهرها ضياء الرغبة؛ ففي مثل هذه السن يبدأ الشيخ بقوله: ما الفائدة في كذا وكذا... وهذه العبارة أخطر شيء في حياته، لأنه بعد أن يقول: ما الفائدة في كذا وكذا.. يقول: أي فائدة، في الخروج من داري...ثم يقول: أي فائدة في الخروج من غرفتي... ثم يقول: أي فائدة في الإنحدار عن فراشي.. ثم يقذف بهذه العبارة الراعبة: أي فائدة في الحياة كلها.. وهنا تفتح أبواب الموت على مصاريعها!

فهل يستطيع الإنسان أن يتفلت من آفات الشيخوخة، التي تضعفنا، وتحرم علينا لذات الحياة، لذة بعد لذة، وتيبس قلوبنا كما تيبس أجسامنا، وتبعد عنا الأصحاب وحوادث الحياة، وتلوح لنا بفكرة الموت؟

لقد هدتنا الحضارة والتجاريب إلى أمور نستر بها شيخوختنا إن لم نقدر على دفعها؛ فالزينة في هذا الباب لها عظيم الشأن، فإن العجائز يعتنين بثيابهن وبحليهن أكثر من الفتيان وهذا أمر بديهي، فإن الحلى اللامعة من شأنها أن تستميل النظر إلى صاحبتها، وأن تدفع العيون عن التمعن في مقابحها، فإن لمعان عقد اللؤلؤ في عنق من الأعناق يكاد ينسي الناظر إليه تجعدات هذا العنق، وبريق الخواتم في الأصابع، والأساور في المعاصم يكاد يخفي شيخوخة هذه الأصابع وهذه

المعاصم، وما يقال في زينة الحضارة يقال في وشم البداوة، وكل مهارة الخياطات ودور الجمال في هذا العصر قائمة على اختراع زي من الأزياء تظهر به العجائز في صورة تجعل لهن بعض الأمل..!

فهل يستطيع العلم في يوم من الأيام أن يمنع الشيخوخة على تهديم أجسامنا، لقد قالوا إن الإنسان لا تتوقف معرفة عمره على تذكرة ميلاده، ولكن على شراييه ومفاصلة، فقد يجوز أن يكون ابن الخمسين أعجز من ابن السبعين، وعمل العلم في مثل هذه الحال رد خلايا الجسم إلى حالة فيزيولوجية تنعم فيها هذه الخلايا بشيء من الشباب وقد جرب العلماء هذا الأمر على الحيوانات وعلى الرجال، و«عمليات فورونوف» لم تنقطع بعد في العالم، إلا أن هذا كله لا يهم، فالرجل في هذا العصر يستطيع أن يبلغ الثمانين إذا اتبع قواعد الصحة.

ففي ثمانين سنة يرى الإنسان كل شيء في هذه الدنيا: يرى الحب وخاتمته، ويرى المجد وبطلانه، ويرى جنون الناس ببعض المعتقدات الحديثة والشفاء منه. ورهبة الموت بعد هذا كله لا تكون شديدة، لأن القلب في الثمانين يتعلق بأشخاص درجوا، وبحوادث مضت؛ وكما يسأم المتفرج في السينما وحدة المناظر إذا تعاقبت عليه فيترك السينما، فكذلك ابن الثمانين يسأم وحدة الحياة التي يشهدها، والحياة إنما هي مسرح مستمر!

فليس المهم أن يتفلت المرء من الشيخوخة، ولكن المهم أن يشيخ شيخوخة حسنة؛ فالذي نطمع فيه إنما هو بلوغ آخر مرحلة من مراحل الحياة وقد سلمت أجسامنا وعقولنا من الآفات؛ فهل هذا الأمر ممكن؟ إنه ممكن كل الممكن على رأي «موروا» فليس من الضروري أن تكون الشيخوخة ممزوجة بالآفات التي عرفناها؛ فكثير من الحيوانات

تنتقل من الحياة إلى الموت دون تغيرات ذات شأن، والرجل الذي يروضّ جسمه ترويضاً حسناً يستطيع أن يحتفظ بمرونة هذا الجسم وبلطفه زمناً طويلاً، فالرياضة والمواظبة عليها لها شأن عظيم في هذا الوجه.

ولكن رياضة الجسم وحده غير كافية، فالقلب في حاجة ماسة إلى الرياضة، إلا أننا لا نستطيع أن نخلق في قلب الشيخ عواطف حديثة؛ ولكن لماذا يتمنع الشيخ عن عواطفه نفسها لمجرد السن؟ قد يكون الشيخ العاشق هزأة، ولكنه لا يكون هزأة إلا إذا نسي أنه شيخ، فليس في تحاب زوجي عجوزين شيء من السخرية، فكل واحد منهما يرى في صاحبه ما كان يحب منه في زمن الشباب، فليس للعطف ولا للحنو ولا للود ولا للإعجاب بشخص عمر من الأعمار؛ وفضلاً عن هذا كله فإن الحب إذا انقضى الشباب العاصف قد يصبح لذيذاً، لأن الإختلافات الحسية تزول بزوال شهوة الحواس، فتنشأ عن بقية شباب عاصف شيخوخة فاتنة، فإن حياة الزوجين تشبه هذه الأنهار التي تكون عند منبعها بمنزلة التيارات الهادرة، ولكنها عند المصبّ تصبح سواقي هادئة صافية، ينعكس على مرآتها حور الشواطئ، وكواكب الليل!

على أن الحياة العاطفية ليست مركبة من عواطف الحب وحده، فإن التعلق الذي يتعلقه الشيخ بأولاده وبأحفاده قد يملأ حياته ويشغلها، فإنه يجد لذة عظيمة في رؤية إبنه أو إبنته يندفعان في الحياة. إنا نفرح بسعادة أولادنا، نألم لألامهم، ونشترك في نضالهم، ونحب من يحبون؛ فبعد السرور الذي نشعر به في التفرج في ملعب من الملاعب في المرة الأولى، أفلا نشعر بسرور أشد في الذهاب بأولادنا إلى هذا الملعب؟ وبعد السعادة التي نذوقها في الاهتداء بأنفسنا إلى الشعراء الذين نحبهم،

أفلا نذوق سعادة أكمل في أن نراقب على وجوه أولادنا آثار اللذة التي يجدونها في قراءة ما اخترناه لهم من الكتب؟ وفي الوقت الذي تحرم علينا الشيخوخة أفراحنا العظيمة، أفيمكننا أن نعرف فرحاً أعظم من الفرح الذي ندخله على قلوب هؤلاء الأولاد؟

وكما أنه ليس من الضروري أن تضعفنا الشيخوخة، وأن تحرم علينا اللذات، وأن تيبس قلوبنا، فكذلك ليس من الضروري أن تبعد عنا الأصحاب فإن الشيخ لا يعتزله الناس إلا إذا كان صاحب أثرة، بخيلاً، ميالاً إلى الانفراد بالحكم، ثرثاراً، ولكنه إذا فطن لعيوب الشيخوخة فقاوم هذه العيوب، وشاخ كريماً، متواضعاً، محباً فإنه يجد الشباب يفتشون عن صداقته، ويستعينون بتجاربه، ولكن اللباقة كل اللباقة بنقل هذه التجارب إلى الأحداث دون أن يؤلمهم في نفوسهم.

لقد تعوَّد «موروا» أن يزور «هانوتو» كل سنة في منتصف دسمبر، وفي زيارة من الزيارات قال له «هانوتو»:

«أريد أن أبين لك بعض حكم يلزمك أن تكررها إذا احتجت إلى شيء من العزاء والتسلية، إنها حكم بسيطة وناجعة، وهذه هي: قد يحدث في الدنيا كل شيء... وقد ينسى الإنسان كل شيء.. وقد يدبر الله كل شيء.. إذا كان الناس كلهم يعلمون ما يقوله الناس بعضهم في بعض، فلا يكلم حينئذ أحد أحداً.. لا تخف فإن العدو الذي تهرب منه يخافك في وقت هربك منه..».

فهذا شيخ علمه التاريخ وممارسة الحياة الطويلة الهدوء والثقة، ولم يعلماه اليأس وعدم المبالاة؛ فقد كان «هانوتو»وهو ابن خمس وثمانين سنة يعزم ألف عزيمة، ويفكر في أسفار طويلة، ويبني ويغرس؛ فكذا ينبغي لنا أن تكون شيخوختنا، يجب علينا أن نقاوم عدم مبالاة النفس

الذي ينشأ عنه اليأس والقنوط؛ وقد يظن الإنسان أن الحياة العاصفة، حياة الإنفعالات الشديدة، والمقاومات والمطالعات، والتنقيبات قد تتعب الإنسان وتهدمه؛ ولكن الواقع غير هذا كله، فقد كان «كلمنصو» و«غلادستون» رئيسيً وزارة من بعد الثمانين، وكان الناس يدهشون من نشاطهما ومن شدتهما؛ فالشيخوخة عبارة عن عادة سيئة، فالرجل المشغول لا يجد متسعاً من الوقت لاعتياد هذه العادة.

وخلاصة القول قد تجردنا الشيخوخة من القوة، ولكن مسئلة القوة والضعف إنما هي مسئلة صحة لا مسئلة سن، فلبعض الشيخوخات شدة، ولبعض الشبيبات رخاوة؛ وقد تجردنا الشيخوخة من اللذات، ولكن لها لذَّاتها الخاصة، وقد يكون حبها لهذه اللذات على قدر خوفها من فواتها؛ وقد تجردنا الشيخوخة من العمل، ولكن الشيوخ في معظم الأحوال يعملون، ويقودون، ويحكمون، فلا يجاريهم الشباب في عملهم وفي قيادتهم وفي حكمهم؛ وقد تجردنا الشيخوخة من الأصدقاء، ولكن إذا عرفت كيف تستميل إليها الأصدقاء فإنهم يحيطون بها؛ وأخيراً فقد تخشى الشيخوخة الموت، ولكن هذا الخوف يشفيه الإيمان والفلسفة!

مجلة الثقافة

القاهرة

خطبة زياد في البصرة

قدم زياد البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان، والفسق فيها فاش، ظاهر، فخطب خطبته البتراء المشهورة، فهل نستطيع وقد تباعدت الأحقاب بيننا وبينه، أن نرجع إلى خطبته، فنستخرج منها الأصول التي بنى عليها سياسته، مستقلين بالرأي، دون أن يكون لهوى النفس، أو لعصبية التأريخ، شيء من السلطان علينا؟ هل نستطيع أن نعرف زياداً في خطبته البتراء؟ فلنقرأ هذه الخطبة مرة ثانية.

لا شك في أن الذين سمعوا خطبة زياد كانوا من طبقات شتى، فمنهم أهل البيوتات والأنساب والآداب، ومنهم العامة. فبأي طراز من الكلام لقي زياد هذه الجماهير المختلفة؟ فاسمع فاتحة خطبته:

«أما بعد،ة فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغى الموفى بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير!».

جهالة جهلاء، وضلالة عمياء، وغيّ موفٍ بأهله على النار، هذه مقدمة الكلام الذي لقي به زياد أهل البصرة، سفهاءها وحلماءها، صغارها وكبارها. ولا ريب في أن مثل هذا الكلام ليس من شأنه أن يكون له وقع حسن في نفوس الذين سمعوه، فليس من الهين أن ينسب الوالي أهل البصرة إلى الجهالة والضلالة والغي، وأن يرضوا عنه. فكيف حاول زياد أن يصدر عن هذا المورد العكر الذي ورده؟ لقد قذف

بما قذف به في مقدمة الخطبة، ولم يندفع في هذا النمط من القول، فبعد أن عاب أهل البصرة بما عابهم به، بعد أن ظهرت الشدة على كلامه، أحب أن يظهر اللين عليه، فقال:

«كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول».

فلم يجد زياد أبلغ من كتاب الله للإستعانة به على سفهاء البصرة وحلمائها، فبعد أن آلمهم بما آلمهم به تحصن بكتاب الله، وهو الحصن الحصين في مثل هذه الحال، فذكر أهل الجهالة والضلالة والغي بكريم ثواب الله وبأليم عذابه، وفاته شيء واحد، فاته ذكر آية في الأمر بالمعروف والنهي عن الفحشاء والمنكر، وكأن زياداً قد علم بأن الإستعانة بكتاب الله تمهد له السبيل إلى النفوس، فتنبسط في هذا الضرب من الوعظ فقال:

«أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدَّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من تركك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله».

فاستعمل زياد طفيفاً من الحكمة في تنبيه أهل البصرة على أعمالهم، مثل إيثارهم الدنيا، وسدِّ الشهوات لمسامعهم، فكان كلامه عاماً ليس فيه شيء من التخصص، فلم يفاجئ الناس مفاجأة بذكر الأمور التي خالفوا فيها كتاب الله، ولكنه لم يرد أن يختم عبارته دون ذكر واحدٍ من هذه الأمور، وهوى ترك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، وفي هذا الكلام شيء من إغراء العداوة بين الضعفاء والأقوياء، ولا شك في أن في جملة من سمع خطبته كثيراً من هؤلاء الضعفاء.

فلمَّا تمكَّن بعض التمكن من قلوب الناس، سواء أكان هذا التمكن بالتذكير بكتاب الله، أم باللجوء إلى يسير من الوعظ، أم بالإغراء بين الضعفاء والأقوياء، خلا له الجو، فاستطاع أن يكاشف أهل البصرة، سفهاءَها وحلماءَها بأنواع جهالتهم وضلالتهم وغيهم، فقال:

«ما هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، والعدد غير قليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضون على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفهه، صنيع من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب.»

هذه حالة البصرة لما قدمها زياد عاملاً لمعاوية: مواخير منصوبة، ضعيفة مسلوبة، غواة في الليل والنهار، إغضاء على المختلس، ذبٌّ عن السفيه. ولعمري إنها لأمور مخالفة لكتاب الله، مخالفة لقانون الاجتماع، أمور لا يصحّ لعامل مثل زياد أن يسكت عنها، لأن في السكوت عنها ضياعاً للمسلمين، وضياعاً لزياد نفسه، وضياعاً لسياسة معاوية أمير المؤمنين. فماذا أعد زياد لأهل البصرة، وحالتهم على ما علمت؟ فهاك خطته:

«حرام عليَّ الطعام والشراب حتى أسوِّيها بالأرض هدماً وإحراقاً، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعيف، وشدة في غير عنف. وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد، فقد هلك سعيد! أو تستقيم قناتكم.»

الآن تكشَّف زياد لأهل البصرة، فظهرت سياسته في حقيقة صورتها: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. ولكن الشدة كانت أغلب على كلامه من اللين، ولئن لم تظهر هذه الشدة في عزمه على هدم مكانس الريب وإحراقها، فإنها قد ظهرت في أخذه الولي بالوالي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم. ولولا هذه الشدة ما استقامت قناة أهل البصرة، لولا هذا العنف ما استطاع زياد أن يضبط من أهل البصرة ما ضبط والفسق فيها على ما علمنا.

ولكن زياداً خاف أن لا يصدقه الناس في الذي عزم عليه، فقد خاف أن يرموه بالكذب في يمينه؛ فاضطر إلى تأييد هذه اليمين بقوله:

«إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة؛ فإذا تعلقتم عليَّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ، واعلموا أن عندي أمثالها.

أما وقد اطمأن زياد إلى أن كلامه قد وقع في آذان الناس وفي قلوبهم، ولم يحف بعد هذه الطمأنينة شيئاً من تكذيب الناس إياه فليبادر إلى إيضاح سياسته في إصلاح حالة البصرة، وليتوسع في تبيين العقوبات التي أعدها في مثل هذا الإصلاح.

«من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه، فإيّاي ودلج الليل، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية؛ فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة. من غرَّق قوماً غرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه».

يتبين لنا أن العقوبات التي وضحها زياد في هذا الكلام أخف من العقوبات التي ذكرها من قبل،فالفرق ظاهر بين أخذ الولي بالمولى مثلاً، وبين تغريق من يغرق قوماً، فقد نزل زياد عن شدته بعض الشيء، فأمن الناس على أموالهم وأرواحهم، وأحدث لكل ذنب عقوبة، فقد كانت البصرة حين مقدم زياد في حالة لا يصلح معها اجتماع ولا ينمو فيها مال، ولا يكثر فيها عمران. وأي بلد أسوأ حالاً من البلد الذي يفشو فيه التغريق والإحراق، والنقب والنبش، وأشباه هذا كله؟ فبعد أن أدخل زياد على أهل البصرة الطمأنينة إلى أموالهم وأرواحهم، وبعد أن خوف سفهاءها بهذه العقوبات التي أحدثها، لجأ إلى اللين في كلامه حتى يستميل القلوب إليه فقال:

«وقد كانت بيني وبين أقوام إحن، فجعلت ذلك دبر أذني، وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزد إحساناً، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي، لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً حتى يبدي صفحته لي، فإذا فعل ذلك لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس.».

إنا نجد زياداً في هذا المقام قد طوى أحاقده، وظهر في أخلاق الوالي المنصف، فلا يحاسب الناس على بواطنهم، فقد أخذ يتشبه في هذه السياسة بعمر رضي الله عنه، وعلم بأن مثل هذه السياسة تزيد في تمييل الناس إليه، بعد الشدة التي ظهرت آثارها على كلامه، فتوسع في هذا المذهب فقال:

«أيها الناس! إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع

والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصرت عنه، فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم، ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانه، ولا مجمراً لكم بعثاً، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيه لكان شراً لكم، أسأل الله أن يعين كلا على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله.»

هذا كلام أشبه شيء بكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد انسحب زياد على أذيال عمر في هذه السياسة، فجعل بين الراعي وبين الرعية هذه الصلة المتينة، صلة المناصحة؛ فإذا فقدت المناصحة بين الحكومة وبين الأمة تمكن من الأمة كره الحكومة، وتمكنت من الحكومة النقمة على الشعب؛ ومتى اشتدت الكراهية من ناحية الأمة، والنقمة من ناحية الحكومة، ضاعت الأمة والحكومة في وقت واحد؛ وهذا ما فطن إليه زياد في أواخر خطبته، فأحب أن يصور الولاة للأمة في صورة الكهف الذي ترجع إليه في شدائدها، فإذا صلح الوالي صلحت الأمة، وإذا فسد فسدت وهذا هو المثل الأعلى في الحكم.

إلا أن زياداً خاف أن يكون اللين آخر ما يعلق بأذهان أهل البصرة من خطبته، وخاف أن ينسوا الشدة التي غلبت على بعض كلامه، والعقوبات التي أحدثها لذنوبهم. والخلاصة خاف أن ينسوا زياداً، فهدر هذا الهدير، فقال:

«وإيم الله! إن لي فيكم لصرعي كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي!»

وهكذا فقد بدأ خطبته بالشدة، وختمها بالشدة، أما الليـن فكان يتخلل كلامه.

أما وقد فرغنا من قراءة خطبة زياد في البصرة؛ فهل استطعنا أن نعرفه في خطبته، أظن أنا لا حاجة، بنا بعد أن دققنا في كلامه هذا التدقيق إلى معرفة رأي الناس في سياسته فقد كان تصرفه في خطبته عنوان تصرفه في سياسته العامة. ولئن كان مكتوباً في مجلسه الشدة في غير عنف، واللين في غير ضعف، فتكون هذه الحكمة أبرز شيء في سياسة زياد، فإن لجوءه في كلامه إلى الرفق مرة وإلى الغلظة مرة، ثم تقلبه بين الوعد والوعيد، دليل على حذقه أساليب السياسة، ومهارته في مداخلها ومخارجها، ووقوفه على طبائع الناس. ولولا هذه البراعة في السياسة وعلم النفس ما كتب له هذا النصيب من التوفيق، فقد قدم العراق وهي جمرة تشتعل، فرأينا العُدَّة التي أعدَّها لإطفاء هذه الجمرة. فلنرجع الآن إلى خطبة زياد في البصرة، ولنملأ خواطرنا منها، فلعل فهمنا لأسرارها ولمحاسنها يكون أتم وأكمل. وإذا قرأنا خطب رجالات سياستنا، وكلام أدبائنا في القديم على هذا الوجه، فلعلنا نختصر المسافة بين أفهامنا وبين إدراك عبقريتهم.

مجلة الثقافة

القاهرة

السياسة الحكيمة

فرغت في هذا الأسبوع من مطالعة كتاب صغير اسمه «سلوك المالك في تدبير الممالك» لصاحبه «شهاب الدين أحمد بن أبي ربيع» وقد ألفه للخليفة المعتصم.

بنى المؤلف كتابه على أربعة فصول: فصل في المقدمة، وثلاثة فصول في أحكام الأخلاق وأقسامها وفي أصناف السيرة العقلية وانتظامها وفي أقسام السياسات وأحكامها.

عنوان الكتاب يدل على موضوعه، فلا أرى بي حاجة إلى وصفه، فهو جملة قواعد وضعت للذين يسوسون أمور الناس.

من هذه القواعد ما يلي: سأل الإسكندر حكيماً: من يصلح للملك؟ فقال له: إمَّا ملك حكيم أو ملك متلمس للحكمة، والحكمة في هذا المقام معناها الفلسفة. ومنها: وعلى الملك أن يعرف أكثر أخلاق رعيته ليؤهل كلاً لما يصلح له من الولايات.

إذا كانت دساتير الأمم في عصرنا هذا قد اختلفت عن دساتير المتقدمين، فأصبحت للأمم مجالس نيابية ومجالس شيوخ وغير ذلك، فإن شيئاً واحداً لم يتغير، وهو بناء السياسة على علم النفس، وقد أدرك المتقدمون هذا الأمر فقرنوا الفلسفة ومعرفة الأخلاق بسياسة الرعية. ولكن المؤرخين الذين دونوا تاريخ العرب والإسلام أهملوا هذا العنصر الفلسفي في أحكامهم، فلو بعثوا في يومنا ونظروا في الذي كتبوه لكان

لهم رأي غير رأيهم الأوّل. لا شك في أنهم كانوا لا يهملون في هذا العصر العوامل النفسية في سياسة الأمم والأفراد؛ كانوا إذا تكلموا على رجل من رجال العرب والإسلام تولى مقاليد الأمر والنهي في زمن من الأزمان جعلوا للعنصر النفسي في كلامهم مقاماً، فإذا نجح هذا الرجل أو أخفق في سياسة الناس فإنهم كانوا يبحثون عن العوامل التي أدّت إلى هذا النجاح أو إلى هذا الإخفاق؛ وقد تكون هذه العوامل مرة اجتماعية ومرة اقتصادية أو غير ذلك، وفي كل حال فإن للعوامل النفسية في النجاح والإخفاق شأناً غير قليل.

قد تؤثر في مصير الأمم أمور شتى، ولكن أعظم هذه الأمور سلطاناً إنما هي العوامل النفسية. ولو تذكرنا التعبير الذي ولدته هذه الحرب وهو حرب الأعصاب لعرفنا حق المعرفة أن لعلم النفس منزلة عظيمة في الحرب، وقد كان له مثل هذه المنزلة في الحرب التي قبلها؛ وعلى الرغم من هذا كله لا يزال علم النفس ضعيفاً، فلا تزال الأمم يجهل بعضها أخلاق بعض، كما جهل الأمريكان أخلاق اليابانيين في بدء الحرب، فبينما كان الأمريكان واليابانيون يتفاوضون قبل تحاربهم على وجه سلمي كانت أساطيل اليابانيين تحتل جزر الأمريكان، ولما اطلع الأمريكان على هذا الأمر قالوا: لم يخطر ببالنا غدر اليابانيين. ولو كانوا عالمين بأخلاق جيرانهم لما قالوا هذا القول ولما غلطوا هذه الغلطة!

فالسياسة مبنية على معرفة أخلاق الجماعات والأفراد وعلى معرفة الأحوال التي تتبدل فيها هذه الأخلاق؛ وهذه المعرفة النفسية إنما هي أقوى أساس في بنيان السياسة. على أنه قد استطاع بعض الرجال في خلال التاريخ أن يعرفوا ما نسميه نفسية الجماعات والأفراد، وكانت

هذه المعرفة سبب نجاح سياستهم. وقد طبق علم النفس في الحروب فكان له شأن غير يسير؛ وإذا كان المجال لا يتسع للإفاضة في هذا المعنى فلا أقلَّ من الإشارة إلى مثل واحد من أمثال تطبيق علم النفس في الحرب.

يقال في بعض القلاع والحصون إن قسماً من جهاتها لا يمكن الاستيلاء عليه، ولهذا الاعتبار يبقى هذا القسم ضعيف التحصين، وقد استفاد بعض القواد من هذه الغلطات فرأوا أن يهجموا على القلاع والحصون التي هي من هذا النوع من الجهة التي قيل فيها لا يمكن الاستيلاء عليها، فاستولوا عليها، وقد طبقت هذه الطريقة في الحرب الماضية من قبل الألمان ومن قبل الفرنسيين فنجحت وهي طريقة نفسية.

هذا عمل من أعمال علم النفس في الحروب. أما في السياسة العامة فإنه يعلمنا الفن الصعب الذي نقود به الجماعات والافراد ونحول به عواطفهم. ومن طالع إحدى روايات «شكسبير» استطاع أن يجد فيها دليلاً واضحاً على ذلك في الخطاب الذي ولده «شكسبير» على لسان «أنطونيوس» لما إستثار الجماهير أمام جثة قيصر.

لا شيء أصعب من سياسة الناس، لأنَّ الرجل عادةً مركب من شخصيات شتى، لا تظهر إلاَّ في أحوال معينة، وما هذا الثبات الذي نراه في شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لا غير، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة، فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل، فالهادئ قد يصبح ثائراً، والرقيق قد يصبح قاسياً، والفاضل قد تتناثر فضائله، فإذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية فإن جهلهم يؤدي إلى إخفاق سياستهم أو إلى الذهاب بحياتهم أو إلى القضاء على بلادهم في بعض الأحيان.

لا يتسع المقام للتبسط في هذا الباب، وإنما حسبي من كل ما ذكرت أن أشير إلى أن السياسة المجردة من علم النفس إنما هي سياسة مفشفشة.

بقي عليَّ أن أختم المقال بضرب مثل في هذا المعنى.

لما ضعف أمر بني أمية في الشام وافى آخر خلفائهم مروان بن محمد بن مروان على الهزيمة إلى حرَّان، فاستشار في ذلك إسماعيل بن عبد الله القشيري وهو رجل من قحطان موتور، في نفسه ضغائن على قوم مروان، فلنسمع حديث هذه الاستشارة على الوجه الذي رواه المسعودي.

ذكر إسماعيل بن عبد الله القشيري قال: دعاني مروان وقد وافى على الهزيمة إلى حرَّان، فقال: يا أبا هاشم، وما كان يكنيني قبلها، قد ترى ما جاء في الأمر، وأنت الموثوق به ولا مخبأ بعد بؤس، فما الرأي؟ فقلت: يا أمير المؤمنين علام أجمعت؟ قال: على أن أرتحل بموالي ومن تبعني من الناس حتى أقطع الدرب وأميل إلى مدينة من مدن الروم فأنزلها، وأكاتب صاحبها، واستوثق منه، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم، وليس هذا عاراً بالملوك، فلا يزال يأتيني الخائف والهارب والطامع، فيكثر من معي، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري وينصرني على عدوّي. فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأي، ورأيت آثاره في قومي من قحطان وبلاءه عندهم، فقلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي، تحكم أهل الشرك في بناتك وحرمك، وهم الروم، ولا وفاء لهم، ولا تدري ما تأتي به الأيام، وأنت إن حدث عليك حادث بأرض النصرانية، ولا يحدث عليك إلاَّ خير ضاع من بعدك، ولكن اقطع الفرات، ثم استنفر الشأم جنداً، فإنك في

كنف وعزة، ولك في كل جند صنائع، يسيرون معك حتى تأتي مصر، فإنها أكثر أرض الله مالاً وخيلاً ورجالاً، ثم الشام أمامك وإفريقية خلفك، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام، وإن كانت الأخرى مضيت إلى افريقية. قال: صدقت، واستخير الله. فقطع الفرات، ووالله ما قطعه معه من قيس إلاّ رجلان، ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئاً بل غدروا به وخذلوه...

ويعلم القارئ كيف كانت عاقبة مروان بعد هذه الاستشارة وكيف كان مقتله في مصر.

فهذا مثل من أمثال الغلطات النفسية في السياسة، وقد أدرك مروان أن القشيري قد غشه في الرأي ولم يمحضه النصيحة، وأنه فرط في مشورته إياه، إذ شاور رجلاً موتوراً ولكنه كان ينبغي له أن يدرك هذا كله قبل الاستشارة؛ فهذه غلطة نفسية ذهبت بحياة صاحبها وبقومه وملكه. فالسياسة أخت علم النفس، فإذا انفصل علم النفس عنها كانت السياسة ضالة مضلة، وإذا اتصل بها كانت حكيمة رشيدة!.

مجلة الثقافة

القاهرة